

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 15 (2011) : 331 - 338
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

البعد الإيكولوجي للعمران البشري في فكر ابن خلدون

محمد قمانة و رضا رميلي
قسم علم الاجتماع المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

"إن العمران البشري يتدرج من البساطة إلى التركيب والتعقيد، وإن العامل الأساسي والمنطلق الأول في هذا التدرج هو اختلاف طبيعة الأرض من حيث الخصب والجدب، من هنا وعلى أساس هذا الاختلاف تختلف طرائق الناس في كسب عيشهم، فتختلف لذلك أحوالهم الاجتماعية، بل وأحوالهم الشخصية أيضا..."[1] ابن خلدون.

تعتبر البيئة الطبيعية شرط أساسيا وضروريا لحياة البشر، ولاستمرارهم في الوجود بشكل منظم، فالظروف الطبيعية التي تحيط بالإنسان هي البيئة الجغرافية الملائمة والتي تتم فيها عمليات التأثير المتبادل، وبشكل مباشر ما بين الإنسان من خلال أدوات الإنتاج، والعلاقات الاجتماعي مع أعضاء مجتمعه، في المكان والزمان، من جهة وبين وسطه الطبيعي المحيط به ليتحول إلى مظهر جغرافي بشري، وذلك سعيا إلى تحقيق ظروف موضوعية يجد فيها البشر، المناخ الملائم للمحافظة على صيرورة وجودهم كبشر.

إذن فالتأثير المتبادل القائم بين الإنسان والبيئة الطبيعية، هو تأثير جدلي ومعقد، فالطبيعة تقدم الإمكانيات الضرورية لحياة الإنسان، ويقوم هو بالمقابل بتسخير تلك الإمكانيات لصالح استمراره في الوجود، من خلال مسيرة تطوره الثقافي الدائم الحركة[2]، وعلى هذا الأساس فقد نال موضوع تأثير الطبيعة على طباع وسلوكيات البشر الكثير من الاهتمام من طرف معظم الباحثين في الحقل الاجتماعي، وذلك لأهمية العناية بمظاهر التفاعل بين الإنسان وبيئته الطبيعية، وهو ما يطلق عليها الايكولوجيا الإنسانية (البعد الايكولوجي للظواهر)، حتى أضحى أحد فروع الدراسات الاجتماعية.

ويعتبر عالم الاجتماع العربي ابن خلدون من أهم المفكرين الاجتماعيين الذين حللوا هذه العلاقة، فالبيئة الجغرافية بعناصرها المختلفة كانت برأي ابن خلدون سببا في تباين أفراد العمران البشري بملامحهم وسلالاتهم، وأخلاقهم ولغاتهم، ومن ثمة طبائعهم وسلوكياتهم الاجتماعية، فتباين الأقاليم المناخية بعواملها الطبيعية وتضاريسها تلعب حسبه دورا مهما في تحديد أمزجة البشر

وسلوكهم من بيئة لأخرى.

ومن هنا فقد تبين أن البيئة الطبيعية وفق تصور ابن خلدون هي التي تساهم في بلورة السمات البيولوجية والنفسية للإنسان، وهذه السمات هي التي تعمل في النهاية على تشكيل المجتمع على هيئاته المختلفة، وقد اعتمد ابن خلدون في تحليله لهذا التأثير على تقسيم الجغرافيين القدماء للعالم، والذي يقسم المعمورة إلى سبعة أقاليم مناخية، يتم التفريق بينها من خلال اختلاف درجة الحرارة من الشمال إلى الجنوب ومن الحارة إلى الباردة،فبعد أن وصف أحوال هده الأقاليم وذكر ما فيها من تنوع في البيئة الطبيعية ، قام بتفسير الاختلافات فيما بين شعوب هذه الأقاليم المناخية جاعلا من اختلاف البيئة الطبيعية سببا رئيسيا لتباين عادات وطبائع سكان هذه المناطق، حيث يرى أن اعتدال الحرارة والبرودة يساهم في وفرة العمران البشري، أما إفراط الحرارة فيتساوى حسبه مع إفراط البرودة في عدم المساعدة على وفرة العمران، ومن ثم فإن هذا الوضع المناخي يساهم حسبه في تبلور ظاهرتين أساسيتين هما:

1/ تطور العمران البشري في الأقاليم المعتدلة:

ويقصد ابن خلدون بالعمران البشري ذلك الواقع الطبيعي الاجتماعي الذي تظهر فيه وتزول الظواهر العامة والوقائع الجزئية المفردة في حياة الإنسان، من أحوال التوحش والتصارع إلى أحوال التحضر والتفنن في العلوم والفنون والصنائع، وهو الواقع الذي تنشا الدولة فيه وتموت، ويتوالى فيه تتابع الأجيال ويتشكل التاريخ. إنه واقع كلي مترابط الأجزاء ترابطا عضويا[3]، وهو المجتمع بكل ما يحمله من عناصر اجتماعية، وهو ما أطلق عليه ابن خلدون علم العمران البشري أو الاجتماع الإنساني وهو العلم الذي نسميه الآن السوسيولوجيا. أما الأقاليم المعتدلة فيقصد بها ابن خلدون تلك المناطق ذات المناخ المعتدل تعمل على جلب اكبر قدر ممكن من البشر لما توفر من شروط ملائمة لحياة الإنسان وحتى الحيوان، وهذا ما يساهم في ظهور التجمعات البشرية والتي تؤدي بدورها إلى ظهور الحضارات الإنسانية، حيث يقول في هذا الصدد: "إن المعمور من هذا المكشف من الأرض إنما هو إفراط للحر في الجنوب وإفراط للبرد في الشمال، ولما كان الجانبان متضادين في الحر والبرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلا، فجاء سكانه من البشر أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا، حتى النبوات فإنها توجد في الأكثر في هذا الإقليم، ولم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية، وذلك أن الأنبياء والرسل إنما يختص بهم أكمل النوع من البشر في خلقهم وأخلاقهم... أهل هذه الأقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم، فنجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم، فلهذا كانت العلوم والصنائع والمباني والأقوات، والفواكه بل حتى الحيوانات. هي على نحو من الاعتدال...وهم أهل بلاد المغرب والشام والحجاز واليمن والعراق

والهند والسند والصين وما كان قريبا منهم"[4]. إن البيئة الطبيعية ذات المناخ المعتدل تلعب دورا كبيرا في تجمع السكان وتحضرهم، حيث نجد الأغلبية الساحقة من البشر تسكن في هذه المناطق.

2/ تخلف العمران البشري في الأقاليم المفرطة في الحر والبرد:

يعني بها البيئة الطبيعية القاسية في ناحية الحر أو ناحية البرد، وهي الأقاليم التي يصعب مجارات مناخها، ومن ثم كان نفور العمران البشري منها واضحا إذ لا يقطنها إلا مجموعات قليلة من القبائل التي يغلب عليها الطابع البدائي منه إلى التحضر، حيث يقول في هذا الصدد "أما الأقاليم المناخية البعيد من الاعتدال–أي المفرطة في الحر أو البرد– فأهلها أبعد إلى الاعتدال في جميع أحوالهم، فبناؤهم بالطين والقصب، وأقواتهم من الذرة والعشب، وملابسهم من أوراق الشجر، وأخلاقهم مع ذلك قريبة من التوحش وطبائعهم ومزاجهم غريب تمتاز بالخفة والطيش وكثرة الطرب، ولا يدينون بشريعة إلا من قرب منهم من جوانب الاعتدال، وهو نادرا مثل كوكو والتكرو وبعض القبائل القريبة من صحراء بلاد المغرب جنوب مالي الدائنة بالإسلام، ومعظم سكان أقصى الشمال القريبة من الصقالبة والأتراك..."[5] وبالتالي يمكن أن نحدد مجموعة من خصائص هذا النوع من العمران البشري حسب النص السابق كم يلي:

- المعاش فيه بسيطا ومقتصرا على الضروري منه.
- انعدام أي شكل من أشكال النظام السياسي المركزي الجامع القبائل والجماعات كما هو الشأن في الأقاليم المعتدلة.
- انعدام القوانين المكتوبة، إذ يغلب العرف والاحتكام لرغبات نزوات الأقوى من القوم.
- الاعتماد على الصنائع والتقنيات البسيطة والمحدودة، وغياب العلوم والصنائع المتطورة.
- غياب المدن والحظائر التي من شانها تشكيل الدولة.

ويمكن القول أن الطريقة التي وصف بها ابن خلدون القبائل المتوحشة في أواسط إفريقيا جنوبا (في المناخ الحار جدا) وبلاد الصقالبة شمالا (المناخ شديد البرودة)، هي الطريقة نفسها التي مازال الانثروبولوجيون يصفون بها مثل هذه المجتمعات مقارنة مع المجتمعات المتحضرة في الوقت الحالي. فتأييدا لهذا الوصف يرى حسين مؤنس أن "مظاهر الخفة والطيش والميل إلى اللهو والرقص عند سكان أواسط إفريقيا جنوب الصحراء ليس سببه شيئا خاصا في تركيبهم، وإنما سببه تأثير البيئة الطبيعية (المناخ) الشديدة الحر ووفرة موارد العيش لاقتصارهم على المأكل والمشرب لمحدودية حاجياتهم، مما وفر عليهم الجهد والوقت، ولما كانت الطاقة موفورة والفراغ متسعا كان لابد من ملئه بطريقة ما: إما بالحروب وهي وسيلة للتخلص من الملل

وإنفاق الطاقة المخزونة، وإما بالرقص والغناء وهما متنفسان للضيق، وفي هذه الحالة ببطء التقدم الحضاري فتضل الجماعات على حالها قرونا.."[6].

لكننا يجب أن نشير هنا إلى أن الأحكام أو التوصيف الذي أطلقه ابن خلدون على مجتمعات هذه الأقاليم، كانت تحكمه الظروف التي كانت سائدة في عصره حيث كان يتركز التطور العمراني والصناعي والعلمي في المجتمع الإسلامي عموما والعربي خصوصا، في حين كانت ظروف باقي المجتمعات في الشمال البارد (أوروبا) والجنوب الحار (أواسط إفريقيا) سيئة مقارنة بالحضارة العربية الإسلامية آنذاك.

3/أثر البيئة الطبيعية على العمران البشري في الأقاليم المعتدلة:

بعد أن تكلم ابن خلدون واصفا أحوال العمران البشري في مختلف الأقاليم مركزا على الأقاليم المعتدلة وما يقابلها من الأقاليم المنحرفة، ينتقل بنا إلى دائرة أضيق وهي الحديث عن الأقاليم المعتدلة في حد ذاتها، محاولا تحليل اثر البيئة الطبيعية في هذا الإقليم على حياة البشر فيه وطبائعهم وأخلاقهم، من خلال نمطي المعاش في البدو والحضر في هذا الإقليم. وقد فسر "دي سان" و"روزنتال" بالخطأ أن العمران البدوي ينطبق على حياة البدو في الصحراء، أما العمران الحضري فقد فهم على انه حياة الناس في المدن أي الحضريين، غير أن ابن خلدون يشمل بعبارة العمران البدوي حقائق معقدة تتجاوز حياة بدو الصحراء حيث يقول في هذا الصدد: "سكان البدو هم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة، ومنهم من ينحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز...وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بد، إلى البدو."[7] وبالتالي يدخل ضمن هذا المفهوم سكان الأرياف وحياة الريفيين من المناطق الماطرة في شمال الإقليم المعتدل.لان ظاهرتي العمران البدوي والحضري لم يتناولهما ابن خلدون بشكل ستاتيكي، أو كنموذجين مغلقين متناحرين، وإنما ظهرتا في سياق التطور والحركية للعمران البشري ككل، أي أن العمران البدوي ليس سوى المرحلة الأولى لدورة العمران البشري.

أ/ أثر البيئة الطبيعية في أسلوب ونمط المعاش عند البدو والحضر:

وهنا يرى ابن خلدون أن تباين أحوال البيئة الطبيعية في هذا الإقليم هي التي تساهم بشكل مباشر في خلق نمطي المعاش البدوي والحضري، فرغم أن هذا الإقليم يوصف بالاعتدال إلا أن طبيعة الأرض فيه ليست واحدة، ففيه الأرض الخصبة الوفيرة العطاء والأرض الفقيرة والصحراوية، ولكلا منهما تأثير على أساليب وطرق كسب المعاش حيث يقول "أعلم أن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب ولا كل سكانها في رغد من العيش، بل فيها ما يوجد لأهله خصب العيش من الحبوب والحنطة والفواكه لزكاء المنابت، واعتدال الطينة، ووفرة العمران من جهة، وفيه الأرض الحرة التي لا تنبت زرعا ولا عشبا بالجملة، فسكانها في شظف من العيش قلة في

العمران، مثل أهل الحجاز وجنوب اليمن والملثمين من صنهاجة وسكان صحراء بلاد المغرب، فان هؤلاء أغذيتهم وأقواتهم من الألبان واللحوم، مثل العرب الجائلين في القفار"[8].

وهذا يعني أن التنوع الطبيعي(المناخي) الموجود في هذا الإقليم يساهم بدوره في تنوع طبائع وسلوكيات البشر به، مشكلا بذلك نمطين من أساليب الحياة تفرضهما البيئة الطبيعية المحيطة وهما أسلوب البداوة وأسلوب الحضر، فهناك المناطق الوافرة الماء والكلأ والتي ترغب في الاستقرار والإقامة فيها، فهي تسمح بممارسة عدة نشاطات على غرار الزراعة والصناعة، وبالتالي إقامة القرى حولها ثم يتدرج سكانها حتى يصبحوا أهل مدينة وثروة ورغد في المعاش وهم الحضر، وهنا يرى ابن خلدون أن هذا الخصب والوفرة تنعكس سلبا على طباعهم وسلوكياتهم فتجعلهم ينغمسون في الملذات ورغد الحياة حتى أنه يبعدهم ذلك عن الفضائل والتدين، لان زخرف الحياة يشغلهم عن التدين، إلا أنهم يتسمون رغم ذلك بالهدوء وأميل إلى التأمل والتعمق في التفكير والنظر في عواقب الأشياء والتفكير في المستقبل ومواجهة مشاكل الحياة بتمعن وتدبير. وهنا نشير أن مفهوم الحضر هنا لا يقتصر على أهل المدن بل يجمع كل البشر الذين لم تتحدد علاقتهم بالطبيعة بواسطة الاستعمال بل بالعمل على التحول، وهذا ما يؤدي بالضرورة إلى التحضر[9]. أي هم البشر الذين يعيشون من ممارسة مهنة ما أو من التجارة، وتكون مكاسبهم أكثر وأفضل من أهل البدو لأن أحوالهم زائدة على الضروري ومعاشهم على حسب جهودهم.

وهناك بالمقابل بيئة طبيعية جافة نباتها بطيء النمو وسريع اليُبس ومياهها قليلة لا تساعد على نمو الزراعة لأن أرضها قاحلة جدباء، فهي بذلك بيئة تفرض على سكانها اعتماد نمط الرعي القائم على أسلوب الترحال بحثا عن الغطاء النباتي للحفاظ على حياة المواشي التي هي مصدر الكسب لهؤلاء السكان وهم البدو، لذلك يقتصر معاشهم على اللحوم والألبان التي توفرها إبلهم، وهنا يرى ابن خلدون أن هذه النمط من الحياة جعلهم أحسن حالا في أجسامهم وأخلاقهم مقارنة بأهل التلال، فأبدانهم أنقى وأشكالهم أكمل وأخلاقهم أبعد من الانحراف، وأذهانهم اثقب في المعارف والإدراكات...، وبالتالي فان حياة التقشف تعوّد أهلها على الصبر أبعد عن الأمراض وإتباع الملذات وأقرب إلى التدين، وفي هذا الصدد يقول ابن خلدون "إن أهل البدو المنتحلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الأنعام، وأنهم مقتصرون على الضروري من الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد ومقتصرون عما فوق ذلك من حاجي أو كمالي..."[10].

ب/أثر البيئة الطبيعية في التنشئة الاجتماعية:

لقد كان الاعتقاد السائد في عصر ابن خلدون أن السمات الشخصية للأفراد ناتجة عن الصفات الموروثة من الأجداد، فالأفراد يتفاضلون بحسب أنسابهم وعلى هذا الأساس تتحدد

مكانتهم الاجتماعية، إلا أن ابن خلدون عارض هذا الطرح بردِه إلى الظروف المادية الخارجية معتمدا في ذلك على ملاحظاته الشخصية للواقع الاجتماعي المعيش، حيث يقول "إن النفس البشرية وإن كانت في جبلتها واحدة بالنوعِ فهي تختلف عند البشر بالقوة والضعف في الإدراكات، واختلافها إنما هو باختلاف ما يرِد عليها من الإدراكات والملكات والألوان تكيفها من الخارج، فبهذه يتم وجودها وتخرج من القوة إلى الفعل"[11].

ومن هذا المنطلق فانه يرى أن للبيئة الطبيعية اثر مباشر في رسم معالم شخصية الأفراد، مستدلا في ذلك بكون أهل الأنساب العريقة تتغير أخلاقهم وطبائعهم بعد إقامتهم في المدن واختلاطهم بالبيئة المحيطة، فالعوائد حسبه تقلب طباع الإنسان إلى مألوفها، فهو ابن عوائده لا ابن نسبه وهنا يقول في مقدمته "اعلم أنه لما كانت البداوة سببا في الشجاعة، فلا جرم كان هذا الجيل الوحشي اشد شجاعة من الجيل الأخر، فهم اقدر على التغلب وانتزاع ما في أيدي سواهم من الأمم الأكثر تحمسا لعادة الثأر، وتختلف هذه الطباع باختلاف الأعصار...فكلما نزلوا الأرياف وتفنقوا النعيم وألفوا الخصب في المعاش نقصت شجاعتهم بقدر ما نقص من توحشهم وبداوتهم، وسببه أن تكوُّن السجايا والطبائع إنما هو عن المألوف والعوائد التي تفرضها البيئة"[12].

وهذا ما ذهب إليه "دوركايم" في أن المجتمع يتأثر في تكوينه بالبيئة الطبيعية والتي تلعب دورا هاما في الحياة البشرية وتؤثر تأثيرا مباشرا في مختلف مظاهر النشاط الاجتماعي المرتبط بها، فتختلف أساليب الحياة باختلاف الأرض من حيث الاتساع والضيق والخصب والجدب والوعورة والسهولة، فالبيئة الاجتماعية حسبه وثيقة الصلة بالطبيعية، فهما في تفاعل دائم. كما ذهب سبنسر في الاتجاه حيث يرى أن المحيط الجغرافي والطبيعي من مناخ وموقع وغيرهما له تأثير فعال على حياة الأفراد والجماعات والظواهر التي تخلفها هي نتاج هذا التفاعل وتثير، وهو رأي ابن خلدون من قبل.

إذن فالبيئة الجغرافية بعواملها الطبيعية والتضاريسية، والمناخية، والحيوية، تلعب دورا حاسما في تحديد وتباين أمزجة البشر وسلوكهم من بيئة لأخرى، حيث يتماشى عمق ذلك التأثير مع المستوى الثقافي الذي بلغته الجماعة البشرية في الزمان والمكان، فهو الذي يجعل سلوكيات سكان المناطق المائلة إلى البرودة (شمال الإقليم المعتدل) تتسم بالنشاط وبعد النظر والجدية، وتحكيم العقل دون العاطفة، والميل إلى الحذر لا إلى الاندفاع، أما سكان المناطق المائلة إلى الحر(جنوب الإقليم المعتدل) فهم يأخذون الحياة أخذا هينا ولا يتدبرون للمستقبل إلا تحت ظروف قاهرة، ويغلب عليهم سلوكيات المرح والمشاعر العاطفية والميل إلى الخيال والشاعرية. فابن خلدون قد ربط السلوك الاجتماعي والأخلاق عند البشر، بما يحيط بهم من عناصر البيئة الطبيعية، ويمكن القول هنا أن هذا الطرح الخلدوني يعتبر بحق القاعدة الأساس التي بني على

أساسها "مونتسكيو" المدرسة الحتمية حين ربط بين البيئة الطبيعية وطبائع الحكومات.

وبصورة عامة فان ابن خلدون لم يجعل من البيئة الجغرافية وعناصرها الطبيعية، سوء ذات المناخ الحار، أو المناخ البارد، أو المناخ المعتدل، العامل الأساسي في تكوين الخواص الاجتماعية لساكني هذه المناطق، بما في ذلك ملامح السلوك الاجتماعي لدى كل منهم فحسب، بل يعطيها دورا حاسما في التأثير على النمط المعيشي وفي تكوين البناء الاجتماعي عند الإنسان، وان الفوارق الاجتماعية ليست لها جذور بيولوجية في عضوية أفراد كلا من نمطي البدو والحضر، وإنما هذا التباين في الأخلاق والسلوك والمقدرة على التفكير مرده التمايز الحاصل في البيئة الطبيعية لسكان كلا النمطين.

الهوامش:

1- أحمد العجلان، التوظيف السياسي لنظرية البيئة الطبيعية بين ابن خلدون ومونتسكيو، دار رسلان، دمشق، سوريا، 2009. ص 84.

2- على عبد الله الجباوي، الفكر الأنتربولوجي في التراث العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، القاهرة، 1996، ص 240.

3- ناصيف نصار، الفكر الواقعي عند ابن خلدون، دار الطليعة، بيروت، 1981، ص214.

4- إدريس خضير، التفكير الاجتماعي الخلدوني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص 107.

5- **احمد العجلان، التوظيف السياسي، مرجع سابق، ص 73.**

6- **مؤنس حسين، الحضارة دراسة في أصولها وعوامل قيامها وتدهورها، الكويت، 1998، ص31.**

7- **محمود عبد المولى، ابن خلدون وعلوم المجتمع، الدار العربية للكتاب، تونس، 1980، ص50.**

8- **مقدمة ابن خلدون، دار القلم، بيروت، 1989، ص95.**

9- **عبد القادر جغلول، الإشكاليات التاريخية في علم الاجتماع السياسي، دار الحداثة، بيروت، ط2، 1981، ص51.**

10- **أحمد العجلان، التوظيف السياسي، مرجع سابق، ص 84.**

11- **نفس المرجع السابق، ص 89.**

12- **على عبد الله الجباوي، الفكر الانتربولوجي، ص 290.**